الباب الثالث:

الحرب و"ثقافة الصراع"

الفصل الأول:

ثقافة الحرب في العصور الوسطى

اتسمت الحياة في العصور الوسطى بنزعة عنف عامة تبلورت في "**الحروب الصليبية**، فقد ألقى البابا أوربان الثاني خطبة مثيرة في مدينة مونت الفرنسية في 27 نوفمبر 1095م، ولم تكن الخطبة موعظة أو دعوة إلى الإصلاح، بل كانت تحريضًا وإثارة للحقد والطمع في نفوس الأوروبيين، ودعوة للسلب والنهب، والاستيلاء على أرض الآخرين؛ حيث طالب بوجوب استرداد "**بيت المقدس**" من المسلمين، ومنّى المتطوعين في الحملة بحياة أفضل في الدنيا، وبغفران الذنوب إن ماتوا في ساحة القتال.

وكانت هذه الخطبة بداية لانطلاق الحروب الصليبية، ونقطة فاصلة بين عهدين شهدهما العالم؛ حيث استجاب لهذه الدعوة

الطبقات الدنيا من الشعب، متأثرة بالدعاة الذين جابوا أوروبا لإثارة حماس الناس، وحميتهم الدينية، وكان **بطرس الناسك** أبرز هؤلاء الدعاة، فاستجاب له جحافل من العامة والفلاحين والرعاع، وقطاع الطرق واللصوص، متأثرين بفصاحة لسانه وبيانه، وشاركه في ذلك داعية آخر اسمه "**والتر المفلس**"، وخرجت هذه الجموع، وهي تمني نفسها بالحياة الناعمة والخير الوفير، وعرفت هذه الحملة في التاريخ بحملة الرعاع.

وارتكبت هذه الحملة في سيرها كل الموبقات من سلب ونهب وقتل واعتداء على الأعراض، واغتصاب بعض الراهبات، حتى وصلت إلى أبواب القسطنطينية، فسارع الإمبراطور البيزنطي إلى نقلهم عبر مضيق البسفور إلى آسيا الصغرى، وتخلص من شرورهم، وقابل السلاجقة هذه الجحافل وأوقعوا بهم هزيمة قاسية. بعد أن قضى الصليبيون بجحافلهم الجرارة في العاصمة البيزنطية أسبوعين تحت بصر الإمبراطور ورعايته، عبرت قواتهم إلى آسيا الصغرى، والتحم بهم ما بقي من حملة الرعاع التي قادها **بطرس الناسك** فاجتمع لهم عدد ضخم من الجند قدره المؤرخون بمليون شخص.

بعد ذلك تقدَّم الصليبيون إلى بلاد الشام، وما كادت تصل أنباء هذه الغزو حتى اضطرب المسلمون في الشام، وأحسوا أنهم أمام خطر عظيم، وبدلاً من أن يوحدهم في مواجهته ظلوا على عداوتهم، عاجزين عن المواجهة.

وفي الطريق إلى بيت المقدس كان بعض الحكام المسلمين يدخلون في طاعة الصليبيين، مؤثرين السلامة ولم يكتفوا بذلك بل نزلوا على شروط الصليبيين بتقديم العون والمساعدة لهم، وتوالى سقوط المدن الساحلية وغيرها في أيدي الصليبيين حتى بلغوا أسوار بيت المقدس (يونيو 1099م). كانت قوات الصليبيين التي تحاصر المدينة المقدسة تقدر بأربعين ألفًا، وظلت ما يقرب من خمسة أيام قبل شن الهجوم المرتقب على أسوار المدينة الحصينة، وكان الجند في غاية الشوق والحماسة لإسقاط المدينة، فشنوا هجومًا كاسحًا انهارت على إثره التحصينات الخارجية لأسوار المدينة الشمالية، لكن ثبات رجال الحامية الفاطمية وشجاعتهم أفشلت الهجوم الضاري، وتراجعت القوات الصليبية بعد ساعات من القتال.

كان موقف الصليبين سيئاً، فهم يعانون العطش وقلة المؤن، وكان يمكن للحامية الفاطمية أن تشن هجومًا مضادًا على الصليبيين وهم في هذه الحالة من الإنهاك، فتستأصل شأفتهم وتقضي عليهم، لكنها لم تفعل ثقة منها في مناعة أسوارها، وعدم قدرة الصليبيين على الاستمرار وهم في هذه الحالة. ثم شاءت الأقدار أن تصل سفن حربية من جنوه إلى يافا وتستولي عليها، وتمد الصليبيين بالمؤن والإمدادات والأسلحة والمواد اللازمة لصناعة آلات وأبراج الحصار، وكان لهذه النجدة فعل السحر في نفوس الصليبيين فقويت عزائمهم وثبتت قلوبهم، وطمعوا في النصر.

تأهب الصليبيون لمهاجمة أسوار المدينة بعد أن نجحوا في صناعة أبراج خشبية ومعها آلات دك الأسوار، وكانت تلك الأبراج تتكون من ثلاثة طوابق: الأول لفرق تدفع البرج من أسفل على عجلات، والثاني مخصص للفرسان، والثالث لرماة السهام .. ومساء 13 يوليو 1099م شن الصليبيون هجوماً حاسماً، وفشلوا لكن هذا الفشل زاد الصليبيين إصرارًا، وأوقد الحماسة في نفوسهم لاقتحام المدينة، والاستيلاء عليها مهما كان الثمن، فشنوا هجومًا ضاريًا (فجر 15 يوليو 1099م)،

ونجح عدد كبير من المهاجمين في الاندفاع إلى المدينة، وولت الحامية الفاطمية الأدبار نحو الحرم الشريف حيث توجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى، واحتموا بهما، وبذلك سقطت المدينة في أيدي الصليبيين بعد حصار دام أكثر من أربعين عامًا.

وبعد أن دخل الصليبيون المدينة المقدسة تملكتهم روح البطش والرغبة في سفك دماء العزل الأبرياء، فانطلقوا في شوارع المدينة يذبحون كل من يقابلهم من رجال ونساء وأطفال، ولم تسلم المنازل الآمنة من اعتداءاتهم الوحشية، واستمر ذلك طيلة اليوم الذي دخلوا فيه المدينة. وفي صباح اليوم التالي استكمل الصليبيون الهمج مذابحهم فقتلوا المسلمين الذين احتموا بحرم المسجد الأقصى، وكان أحد قادة الحملة قد أمنهم على حياتهم، فلم يراعوا عهده معهم، فذبحوهم وكانوا سبعين ألفًا، منهم جماعة كبيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارقوا الأوطان وأقاموا في هذا الموضع الشريف.

ويعترف مؤرخو الحملات الصليبية ببشاعة السلوك البربري الذي أقدم عليه الصليبيون، فذكر مؤرخ صليبي ممن شهد هذه المذابح وهو "**ريموند أوف أجيل**"، أنه عندما توجه لزيارة ساحة المعبد غداة تلك

المذبحة لم يستطع أن يشق طريقه وسط أشلاء القتلى إلا بصعوبة بالغة، وأن دماء القتلى بلغت ركبتيه. وكتبوا إلى البابا يفتخرون بما فعلوا دون وازع من خلق أو رادع من دين، فما لامهم ولا استنكر فعلتهم!

وكان العنف كذلك سمة للحياة الاجتماعية فكانت عمليات الإعدام أكثر الأحداث وقوعاً، بل يمكن القول أنها كانت تحدث بلا انقطاع، وشكلت الإثارة القاسية والشفقة التي يسببها تنفيذ حكم الإعدام بنداً هاماً في الغذاء الروحي لعامة الناس، وكانت هذه بمنزلة مسرحيات رائعة ذات مغزى خلقي. واخترع القانون للجرائم الرهيبة عقوبات فظيعة. وحدث في مدينة بروكسل أن شاباً قاتلاً ومثيراً للفتن، وضع وسط حلقة من حزم الحطب المتقدة والقش المشتعل وشد وثاقه إلى عمود بسلسلة تدور حول حلقة من الحديد. فيوجه إلى مشاهديه عبارات مؤثرة، فألان أفئدتهم حتى انفجروا باكين وامتدح موته بأنه أبدع ما شوهد على الأيام.

وعندما كان المجرمون من كبار السادة، كان عامة الناس يسعدون بمشاهدة العدالة الصارمة تجري مجراها على نحو أخاذ لا تبلغه موعظة واعظ ولا ريشة مصور. ولم يعد القارئ العصري للصحف مستطيعاً أن

يتصور على الإطلاق عنف الانطباع الذي كانت تسببه الكلمة المنطوقة في عقل أمي جاهل يعوزه الغذاء العقلي. وينبغي ألا يغيب عن بالنا شيوع تلك الظاهرة العامة الخاصة بسرعة الانفعال وذرف الدموع والثورات الروحية لكي نتصور على أوفى وجه كم كانت الحياة في تلك الفترة عنيفة شديدة التوتر.

وبحسبنا مثالاً بسيطاً لإظهار شدة قابلية الإثارة التي تميز العصور الوسطى من زمامنا هذا، إذ لا يكاد المرء يتصور أن هناك لعبة أدعى إلى الهدوء والسلام من لعبة الشطرنج، ومع ذلك فإنها ببضعة قرون، يذكر عنها أوليفييه دي لامارش أنه نشبت كثيرمن المشاجرات بسببها فيقول: "**إن أعقل الناس يفقدون صبرهم فيها**".

وبلغ من ازدحام المسرح السياسي لممالك أوربا بالصراعات الشرسة الفاجعة، في نهاية القرن الرابع عشر وبداية الخامس عشر، أن لم يسع الناس إلا أن يعدوا كل ما يتعلق بالملوك والملكية، سلسلة متعاقبة من أحداث دموية. ولن يستطيع قارئ عصري في أيامنا هذه، إذ يدرس تاريخ العصور الوسطى القائم على الوثائق الرسمية، أن يدرك بالقدر الكافي ما كانت عليه روح إنسان العصر الوسيط من قابلية مفرطة

للاهتياج. ذلك أن الصورة المستقاة من السجلات الرسمية بصفة رئيسة، مهما كانت تلك السجلات أعظم ما يمكن الركون إليه من مصادر، سيعوزها عنصر واحد هو عنصر الانفعال الشرس ليس منعدماً في السياسة العصرية، لكن يكبحه الآن ويحول وجهته في أغلب الشأن ما يريم على الحياة الاجتماعية من تعقيدات. وكان ذلك الانفعال منذ خمسة قرون يقوم بغارات كثيرة وعنيفة يقتحم بها حياض السياسة العملية، فيقلب الخطط المدبرة بروية وتعقل، رأساً على عقب. ومما يضاعف تلك العاطفة الطافحة بالعنف لدى الأمراء، الكبرياء الشعور بالقوة، ولذا فهي تعمل عملها في نفوسهم بقوة دفع مضاعفة.

ونحن حين نكتب تاريخ "**أسرة برجنديا**" مثلاً، ينبغي أن نتمثل نصب أعيننا على الدوام روح الانتقام باعتباره الدافع المهيمن عليها دائماً. ولن يحاول إنسان أن يبحث الآن، بطبيعة الحال، عن تفسير لكل ذلك الصراع على السلطة والمصالح، الذي تمخض عن النزاع الدنيوي بين فرنسا وبيت الملك النمسوي، وتجلي في الضغائن الأسرية بين أورليان وبرجنديا. وقد أسهمت جميع صنوف الأسباب ذات الطبيعة العامة —

السياسية منها والاقتصادية والسلالية الوصفية الأثنوجرافية في تكوين ذلك الصراع الكبير.

على أنه، ينبغي ألا يغيب عن بالنا أن السبب الظاهر في ذلك الصراع الدافع الرئيس المسيطر عليه كان في نظر رجال القرن الخامس عشر بل حتى بعده، هو التعطش للانتقام. وما عليك إلا أن تقرأ القائمة الطويلة للأعمال التكفيرية التي طالبت معاهدة آراس بها في 1435، ما بين كنائس صغيرة وأديرة وكنائس كبيرة وإنشاء قاعات كان الناس يقدرون بها الحاجة إلى الانتقام والتعويضات عن الشرف المهان. ولم يكن البرجنديون هم وحدهم الذين كانوا يفكرون على هذه الشاكلة، فإن أنياس سيلفيوس، أشد أبناء بلاده استنارة يطري في إحدى رسائله أميراً فوق كل أمراء عصره، لما أبداه من تلهف على الثأر لأبيه.

وهذا الواجب من الحفاظ على الشرف والانتقام، هو فيما يقرر لامارش، النقطة الرئيسة في السياسة عند رعايا الدوق. فإنه يقرر أن جميع ممتلكات الدوق كانت تجأر معه مطالبة بالانتقام. وسنجد من الصعب علينا أن نصدق ذلك القول، عندما نتذكر مثلاً العلاقات التجارية بين فلاندرة وانجلترا، وهي عامل سياسي أكبر أهمية فيما يبدو، من شرف

الأسرة الدوقية. ولكن ينبغي للمرء، لكي يفهم عاطفة العصر نفسه أن يبحث عن الأفكار السياسية المعترف بها، والشعورية الواعية، وليس ثم أدنى شك في أنه لا يمكن للناس فهم أي دافع سياسي آخر على وجه أفضل من فهمهم للدوافع البدائية مثل الكراهية والانتقام. ولم يكن للحروب الخاصة بين أسرتين أثناء عهد الإقطاع سبب واضح إلا التنافس في مرتبة الشرف والتحاسد الجشع على الممتلكات. أجل، إن الكبرياء العنصري والتعطش في الانتقام والوفاء هي الدوافع الأولى والمباشرة لتلك الحروب. وليس هناك أساس يحملنا على نسبة دافع اقتصادي آخر إليها، عدا التطلع الجشع إلى ثروة الجار.

وزاد التعصب الديني تعزير قوة فكرة القصاص. وأدى انعدام الأمن على نحو مزمن إلي تحبيذ أشد أنواع النكال الممكنة من جانب السلطات العامة، فأصبحت الجريمة تعد تهديداً للظام والمجتمع، كما تعد كذلك إهانة للجلال الإلهي. وهكذا يتجلى أنه كان من الطبيعي أن يصبح الشطر المتأخر من العصور الوسطى هو بوجه خاص "**عهد القسوة القضائية**". فإن استحقاق المجرم لعقوبته لم يكن موضع شك على الإطلاق. وكان الإحساس بالعدالة عند عامة الشعب يؤيد على

الدوام أشد العقوبات نكالاً. وكان الحاكم من هؤلاء يقوم بين فينة أخرى بحملات منتظمة يطبق فيها عدالة قاسية تكون آناً ضد قطع الطرق وآنا ضد السحر أو الشذوذ الجنسي.

والذي يسترعى أنظارنا في هذه القسوة القضائية، وفي المتعة التي كان الناس يحسونها إزاءها. هو الوحشية لا الشذوذ والانحراف. فكان التعذيب وتنفيذ أحكام الإعدام متعة للمشاهدين كأنما هما مشهد للتسلية في سوق عام. واشترى سكان مونز أحد قطاع الطرق، بثمن بأهظ إلي أقصى حد، من أجل الاستمتاع بمشاهدته يمزق أربعاً "**وهو مشهد أمتع الناس وأبهجهم بدرجة أكبر مما لو حدث أن جسداً مقدساً جديداً بعث حياً من بين الموتى**"، وأن أهالي بروج في 1488 أثناء أسر مكسمليانك ملك الرومان (إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة) لا يمكن أن يشبعوا أبداً من مشاهدة ألوان التعذيب التي يتم إنزالها، على الحكام المتهمين بالخيانة وتؤبي على هؤلاء التعساء الضربة القاضية التي يتوسلون إنزالها بهم، حتى يتهيأ للناس الاستمتاع للمرة الثانية بإنزال التعذيب بهم.

الحرب في المجتمع الياباني

مع تحوُّل الحرب إلى مفهوم مركزي في الثقافة الاجتماعية اليابانية في العصور الوسطى تحوَّل السيف إلى رمز للمكانة الاجتماعية، ويعد المجتمع الياباني من أهم نماذج عسكرة المجتمعات في التاريخ، فالسيف كان البطاقة الشخصية للياباني ومكانته الاجتماعية ولم يحظ هذا الرمز الحربي "**السيف**" بهذا القدر من التقنية العالية والأهمية الروحية في أي مكان من العالم بنفس القدر الذي حصل ولا يزال يحصل عليه في اليابان.

وكان السيف الياباني بشكل عام يحظى بالتقدير، ليس كسلاح، وإنما كعمل فني بديع منذ أن ظهر لأول مرة في القرن العاشر الميلادي، ومنذ ذلك الحين فإن السيف الثمين يحظى بتقدير أكثر مما تحظى به الأراضي والأملاك. وكل من يمتلك سيفاً من هذا النوع يقوم بتسلمه الى ابنه الذي يسلمه الى الحفيد وهكذا، لكي تتوارثه الأجيال المتعاقبة. وهناك العديد من السيوف اليابانية الوثائقية إن جاز التعبير، وهي تلك التي تحمل توقيع صانعها على النصل ويعود تاريخها إلى ما يزيد على ألف عام. وهناك أيضاً المئات من مدارس صناعة السيوف ذات الانصال والأشكال والمقاييس المعترف بها وتم تسجيلها عبر العصور في اليابان.

وتحمل صفحات تاريخ اليابان فصولاً عديدة عن السيف والدور الذي يلعبه اجتماعياً وجغرافيا. وإلى جانب المرآة والمجوهرات، فإن السيف يشكل جزءًا لا يتجزأ من حقوق الملكية اليابانية. وفي اليابان يعتبرون السيف – إلى جانب كل ما سبق – ذا قيمة روحية، فلم يكن اقتناء سيف دليلاً على المكانة الاجتماعية مثل الملابس الفاخرة، لكن اقتناء السيف في الحضارة اليابانية له مغزى روحي. أما بالنسبة للساموراي فإن السيف يعد إحدى الوسائل التعليمية الأخلاقية، وهو الطريق الذي يؤدي إلى التقدم الروحي، كما كان السيف يعد أيضاً أداة للتنوير.

وشهدت فترة ايدو (1600 – 1868) توسعاً كبيراً لمدن الحصون أي المدن التي تشبه القلاع وقد ظهر من بينها بالتحديد كل من اوساكا وايرو اللتين تحولتا من مجرد قريتين إلى مدينتين بل أكبر المدن في العالم وأضخمها، في منتصف القرن السابع عشر. وقد حكمت حكومة توكوجاوا بكل الشدة والصرامة حتى لا يقع أي عصيان مسلح وذلك بأن فرضت عدداً من الأوامر العسكرية على طبقة الساموراي. فعلى سبيل المثال أدخلت الحكومة نظام سانكين كوتاي الذي بمقتضاه يتعين على كل ساموراي أن يقضي ستة أشهر من العام في ايدو تاركا أسرته خلفه،

وخلال تلك الشهور تكون أسرته رهينة في أيدي حكومة توكوجاوا لحين عودته. كذلك تم استحداث حرس الحدود لمنع خروج النساء ودخول الأسلحة إلى العاصمة. كما أن جميع الانشطة الخاصة بالساموراي كانت تتم تحت مراقبة صارمة لشرطة سرية.

الفصل الثاني

الصراع في الفكر الغربي الحديث

تمهيد:

إن الأدبيات الغربية فى تناولها لظهور وتطوّر الدولة الحديثة في أوروبا، تنظر للحرب والإعداد لها، أو ما يمكن أن نطلق عليه اختصاراً صنع الحرب كعامل هام ومساعد فى تطور الدولة الحديثة. وكان شارلز تيلي قد أشار بعبارة موجزة إلى أن "**الحرب صنعت الدولة .. والدولة صنعت الحرب**". وقد يكون من حسن حظ إنسان القرن الحادي والعشرين أن يكون هناك دائماً من يفضل نزع الديباجات عن الخطاب السياسي السائد وصولاً إلى مضمونه الحقيقي وخلفياته المعرفية.

وقد ترتَّب على ظهور وانتشار الدولة الحديثة ظهور سياسات "**الهيمنة**" بسبب الطبيعة الصراعية للثقافة الأوروبية الحديثة ولتصور الدولة الحديثة لدورها، وحسب الأكاديمي الأمريكي جون ميرشايمر صاحب التصورات الواقعية في السياسة الدولية فإن القرن العشرين شهد حربين عالميين ضاريتين تلتهما حروب محدودة النطاق، وأخرى "**بالوكالة**" سقط فيها ملايين القتلى. وفي كتابه: "**لماذا تتحارب الأمم: دوافع الحرب في الماضي والمستقبل**"، يذكر الباحث الأمريكي ريتشارد نيد ليبو أستاذ الذكرى المئوية بكلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية، أن الباحث أرنولد وولفرز قام بتقسيم "**الواقعيين**" إلى مجموعتين:

- **من يعزون الحرب إلى "الشر" النابع من الطبيعة البشرية.**
- **ومن يعتبرون الحرب "مأساة" ناجمة عن ضرورات منهجية لا مفر منها.**

وآمال السلام في القرن الجديد لن تتحقق لأن الدول الكبرى التي تشكل النظام الدولي تخشى كل منهما من الأخرى، وبالتالي تنافسها على القوة مستهدفة تحقيق الهيمنة كأفضل وسيلة لضمان البقاء. ويترتب

على هذا وضع مأساوي لا مهرب منه ما لم تتفق الدول التي تملك تأثيراً كبيراً على الساحة الدولية على تأسيس: "**حكومة عالمية**"، وما دام هذا التحول غير محتمل حتى الآن، فإن الصراع والحرب سيظلان أهم معالم السياسة الدولية.

واقع "الحرب الدائمة" ومشروع "السلام الدائم"!

يقرر مؤرخ الفكر الأستاذ إبراهيم العريس أن كل مشتغل بالفلسفة يعرف أن مفكرين كثراً من عصر النهضة، ساروا على الخطى التي رسمها قبلهم مفكرون إغريقيون (أفلاطون مثلاً) ومسلمون (الفارابي وآخرين)، وحلموا بقيام المجتمع المثالي والمدينة الفاضلة، ووضعوا من أجل ذلك خططاً وبرامج عمل، كانت تقل أو تزيد واقعية بحسب الظروف وإمكانات التحقّق، وكذلك بحسب المؤلف نفسه. لكن معظم تلك "**البرامج**" كانت محلية الطابع، أي ترُسَم من أجل مجتمع بعينه، ونادراً ما تكون "**كونية**". واعتباراً من أواسط الألفية الثانية، راح الفكر يبحث عن صيغ تتجاوز إطار الأمم، وعن سياسات تحل محل سياسات الحرب.

وبحسب إبراهيم العريس في مقاله: "**نحو سلام دائم" لإيمانويل كانت: الفيلسوف يدعو الأمم الى الهدوء**"، فإن **صيغ** الوفاق العالمي هذه، كانت قبل القرن العشرين، مجرد أحلام فكرية تداعب عقول كبار المؤلفين، ومن بين أولئك المؤلفين يمكن بالطبع التوقف عند الفيلسوف الألماني ايمانويل كانط([1])، الذي، إلى جانب مؤلفاته الكبيرة في الفلسفة النقدية، جعلته مفتتح الثقافة الإنسانية النقدية الواعية في العصور الحديثة، وضع كتابه: "**نحو سلام دائم: محاولة فلسفية**" في العام 1795، قبل وفاته بتسع سنوات وكان قد تجاوز السبعين من عمره.

ويشير الباحث التونسي قيصر الجليدي (أستاذ مساعد الفلسفة بالجامعة التونسية) في دراسته: "**مشروع كانط للسلام الدائم: الفلسفة**

([1]) ولد كانت في 1724 في مدينة كونيغسبرغ في بروسيا الشرقية. تلقى في صباه دراسة دينية صارمة، ودرس لاحقاً في جامعة كونيغسبرغ (كلية اللاهوت)، اهتم أكثر بدراسة الفلسفة والعلوم الطبيعية. ومنذ العام 1747 تحول الى التدريس، أولاً لدى الأسر النبيلة مؤدياً لابنائها ثم في الجامعة. في 1755 وضع كتابه العام الأول. أمضى كانت حياته بين التأليف والتدريس. من أهم مؤلفاته: "نقد العقل العملي"، "أسس ميتافيزيقا الأخلاق"، "نقد ملكة الحكم"، "ما هي الأنوار؟" و"ميتافيزيقا الأخلاق".

والآثار"، إلى أنه كتب الكتاب بعد صدور النسخة الأولى من كتاب: "**نقد العقل المحض**" (1781)، **وبعد صدور** النسخة الثانية من الكتاب نفسه (1787)، وبعد كتاب: "**تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق**" (1785)، وكتاب: "**نقد العقل العملي**" (1787)، وأخيراً، كتاب: "**نقد ملكة الحكم**" (1790)، أي أن كتاب: "**نحو مشروع سلم دائم**" لم يظهر إلاّ وقد اكتملت فلسفة كانط النقدية بالنظر في مجالات المعرفة والأخلاق والجمال.

ولم يكن كانط أول فيلسوف معاصر يضع مشروع كهذا لنشر السلام في العالم، اذ كان هناك قبله كثيرون منهم الفرنسي أمريك كروسيه الذي وضع دراسة حول: "**فرص ووسائل اقرار سلام عام وحرية التجارة في العالم كله**"، والأميركي ويليام بن الذي اقتصر اهتمامه على أوروبا ووضع بحثاً عنوانه: "**السلام الحاضر والمقبل في أوروبا**"، وشارل رينيه كاستيل الذي اهتم أيضاً بأوروبا في كتابه: "**مشروع لجعل السلام في أوروبا دائماً**"، وجان جاك روسو وضع بدوره مشروعاً للسلام لا يقل أهمية. وكتاب كانت يبقى الأهم والأكثر واقعية.

والفيلسوف الألماني صاغ كتابه على "**هيئة المعاهدات الديبلوماسية**" وهو يتألف من: 6 مواد تمهيدية تصوغ الشروط السلبية للسلام.([2]) وجوهر الكتاب أنه، بما أن الحال الطبيعية بين الأمم هي الحرب لا السلام، فمن المؤكد أن القانون المتفق عليه هو وحده الذي يوفر الأمن لكل فرد. والدولة هي التعبير القانوني عن المجتمع، ومن هنا فإن أولى واجباتها تكون في ضمان السلام الداخلي عبر خلق آلية حقوقية تتلاءم مع غايات المجتمع. وكانت يرى، في الوقت نفسه، أن حال

([2]) لا يجوز ان تتضمن أية معاهدة سلام أي بند سري للاحتفاظ بحق استئناف الحرب، لا يمكن امتلاك دولة مستقلة من طريق الميراث أو التبادل أو الشراء، الجيوش الدائمة يجب أن تزول، لا يجوز اقتراض ديون وطنية من أجل مصالح خارجية للدولة، لا يجوز لأية دولة ان تتدخل بالقوة في نظام حكم أية دولة أخرى، لا يجوز لدولة، في حالة حرب مع دولة أخرى أن تقوم بأعمال عدوانية تجعل من المستحيل عودة الثقة بين الدولتين لاحقاً... إلخ)

وهناك ثلاث مواد تصوغ الشروط الايجابية العامة، الداخلية والخارجية لقانون السلام: يجب أن يكون النظام السياسي لكل دولة جمهورياً، القانون الدولي يجب أن يؤسَّس على قيام اتحاد فيديرالي بين الدول الحرة، القانون العالمي يجب أن يقتصر على شروط الضيافة العالمية.

الشعوب تجاه بعضها البعض هي حال الأفراد داخل الأمم، أي انها تعيش تحت تهديد دائم بالحرب. وعليه، فإن على كل أمة (أو دولة) أن تطالب الأمم الأخرى بالدخول معها في شراكة مماثلة للشراكة القائمة بين أهل الأمة الواحدة. وهذا كله لن يكون مجدياً إن لم يقم الأمر كله على الأخلاق، فبما أن الهدف النهائي للنوع البشري هدف اخلاقي، يتعين في نهاية الأمر إخضاع السياسة للأخلاق. من هنا يقول كانط: "**إن مشكلة العلاقات الدولية لا يمكن أن يوجد حل لها، على الصعيد الحقوقي وحده، بل أيضاً وبخاصة على الصعيد الأخلاقي**". ويخلص للقول: "**ابحثوا أول الأمر عن حكم العقل العملي الخالص وعن عدالة هذا الحكم، بعد ذلك فقط سيمكنكم أن تصلوا إلى هدفكم الأسمى (خير السلام الدائم) وفي شكل تلقائي**". وهو في النهاية يسعى للبرهنة على أن تحقيق السلام الدائم لا بد أن ينبع من العقل الأخلاقي.

وبحسب الباحث التونسي قيصر الجليدي (أستاذ مساعد الفلسفة بالجامعة التونسية)، في دراسته: "**مشروع كانط للسلام الدائم: الفلسفة والآثار**"، فإن الحاجة للسِّلم كلّما ازداد الشعور بالتهديد بسبب

أسبقية الحرب عندهم على السلم، فالحرب طبعية في الإنسان، والسِّلم اصطناعي يُبنى بناء، "**الحرب بحد ذاتها ليست بحاجة إلى سبب خاص؛ بل يبدو أنها متجذّرة في الطبع البشري، لا؛ بل تعدّ عملاً نبيلاً ينزع إليه الإنسان حبا في المجد، بمعزل عن أيّ دافع مصلحي**"، لذلك سيرى الكثير من الفلاسفة المحدثين أن غريزة الحفاظ على البقاء من ناحية (توماس وهوبس) والرغبة في البقاء من ناحية ثانية (باروخ سبينوزا) وإرادة الحياة من ناحية ثالثة (فريديريك نيتشه) هي الثابت الأساسي في الهوية البشرية، وشرط إمكان وجود الإنسان لتحقيق الإنسانية الكاملة فيه.

فالإنسان لا يولد إنساناً عند كانط؛ بل يصبح كذلك بفعل التربية والقيم الأخلاقية والسياسية والجمالية، فـ "**لا يستطيع الإنسان أن يصير إنساناً إلاّ بالتربية، فهو ليس سوى ما تصنع به التربية**"، وهو عند الولادة كائن متوحش بامتياز، يفتقر للانضباط، لذا كتب كانط منذ الجملة الأولى (المقدمة) من كتابه "**تأمّلات في التربية**": "**الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يجب تربيته. ونقصد فعلا بالتربية الرعاية والانضباط والتعليم...؛ لأن الانضباط يحوِّل الحيوانية إلى**

الإنسانية". وكانط يبيّن أن المعرفة عند البشر لا يمكن أن تكون دون معلّم، فالإنسان "**يأتي إلى العالم وهو في حالة خام**"، لذا وجب أن يقوم آخرون بتعليمه، فـ "**كل جيل يربي الجيل الآخر**"، في نوعٍ من المراكمة التربوية والأخلاقية والقيمية التي تهدف بلوغ مرتبة الإنسانية الكاملة.

والمدخل التربوي والأخلاقي والقيمي في النظر في مشروع كانط للسلم أمرين: أن كانط يسلم بأن الأصل في الإنسان التوحش، "**فالانضباط لا يتمثّل إلاّ في ترويض التوحّش**". فالإنسان:

كما يقول هوبز "ذئب للإنسان"
وهو "عدواني بطبعه" عند فرويد
و"ماكر بطبعه" عند ميكيافيلي.
و"يَعْرِفُ الأفضلَ ولكنه يأتي الأرذل" كما يقول سبينوزا.

الأمر الثاني يتعلق بأفق تحقيق الخلاص، فالإنسان مشروع أخلاقي كوني مفتوح، والإنسانية عند كانط فكرة تعديلية متغيّرة باستمرار؛ بحيث لا يمكننا أن نجزم أن الإنسان – في لحظة ما – قد انتهى لتحقيق إنسانيته الكاملة. وقد كتب كانط "**مشروع سلم دائم**"؟

وهو محاولة للإجابة عن سؤال: هل بمستطاع الإنسان المتوحّش أصلاً أن يطمح لتحقيق سلم دائم، أو حتى عابر؟ ولو كانت التربية الأخلاقية كافيةً، فلماذا ابتكر الإنسانُ الدولةَ وحصّنها بالقوانين، وزوّدها بكل أشكال العنف الشرعي الردعي والقمعي في آن واحد؟

فيلسوف الحضارة ويل ديورنت في موسوعته الشهيرة "**قصة الحضارة**" يتتبع تصورات المفكرين الغربيين للعلاقة بين "**الدولة**" و"**العنف**"، مقرراً أن "**الحروب هي التي تخلق الرئيس وتخلق الملك وتخلق الدولة**"، وهؤلاء جميعاً يعودون فيخلقون الحروب!!

ففي "**ساموا**" كانت للرئيس سلطة إبان الحرب، أما في غير ذلك فلم يكن يأبه له الناس كثيرا؛ وقبيلة "**دياك**" لم تكن تعرف من الحكومة إلا ما لرأس الأسرة على أسرته من سلطان، فإن نشب القتال كانوا يختارون أشجع مقاتليهم فيولونه القيادة ويطيعونه طاعة عمياء، حتى إذا فرغوا من قتالهم، نزعوه وأرجعوه لعمله السابق. وفي فترات السلم كان أكثر السلطة والنفوذ للكاهن أو رئيس السحرة؛ فلما تطور نظام الحكم، وأصبحت الملكية الصورة المألوفة لدى أغلب القبائل، اشتقت الملكية وظائفها من وظائف هؤلاء، وجمعت تلك الوظائف كلها في

يدها: وظائف المقاتل والشيخ الوالد والكاهن. والجماعات تحكمها قوتان:

الكلمة في وقت السلم

السيف إبان الشدائد

ويتساءل ديورنت: كيف انتهت الحرب إلى قيام الدولة؟

لم يكن ذلك لأن الإنسان ميال بفطرته للحروب، فبعض الشعوب المتأخرة غاية في حب السلام، ولم يستطع الإسكيمو أن يفهموا لماذا يطارد الأوربيون بعضهم بعضاً كالحيتان – مع أنهم يدينون جميعاً بعقيدة مسالمة واحدة – ولماذا يسرق بعضهم أرض بعض؟

ومع ذلك، فحياة البدائيين تخللتها حروب لا تنقطع؛ نعم كان بينهم أنظمة وعادات تحدد القتل، كما هي الحال بيننا، فعينوا ساعات بعينها أو أياما أو أسابيع أو أشهرا لا يجوز للهمجي الكريم النفس أن يقتل أحداً خلالها؛ وكذلك حددوا بعض القواعد لا يجوز عصيانها، وبعض الطرق لا ينبغي أن يعتدي عليها، وبعض الأسواق والمستشفيات لا ينشب فيها قتال، والحرب – مع هذا كله – كانت الأداة المختارة للانتخاب الطبيعي بين الأمم والجماعات البدائية.

وينقل ديورنت عن نيتشه قوله إن: "**جماعة من الوحوش الكواسر شقراء البشرة، جماعة من الغزاة السادة، بكل ما لها من أنظمة حربية وقوة منظمة، تنقض بمخالبها المخيفة على طائفة كبيرة من الناس، ربما فاقتها من حيث العدد إلى حدٍ بعيد، لكنها لم تتخذ بعد نظاماً يحدد أوضاعها ... ذلك هو أصل الدولة**"، ويقول لستر وورد: "**تبدأ الدولة – باعتبارها مختلفة عن النظام القبلي – بأن يغزو جنس من الناس جنساً آخر**". ويقول أوبنهيمر: "**إنك لترى أينما وجهت البصر قبيلة مقاتلة تعتدي على حدود قبيلة أخرى أقل منها استعدادا للقتال، ثم تستقر في أرضها مكونة جماعة الأشراف فيها، ومؤسسة لها الدولة**". ويقول تاتسنهوفر: "**العنف هو الأداة التي خلقت الدولة**". ويقول سمنر: "**إن الدولة نتيجة القوة وهي تظل قائمة بسندٍ من القوة**". وهذا الإخضاع العنيف إنما يقع عادة على جماعة زراعية مستقرة، من قبيلة صائدين ورعاة، لأن الزراعة تعلم الناس الأساليب المسالمة، وتروضهم على حياة رتيبة .... وهم يجمعون ثروة، لكنهم ينسون فنون الحرب ومشاعرها؛ أما الصائد والراعي، فقد ألفا

الخطر ومهرا في القتل، وهما ينظران للحرب كأنها ضرب آخر من مطاردة الصيد.

وبحسب ديورنت، فإن قيام الدولة يقتضي تغيراً في مبدأ التنظيم الاجتماعي من أساسه، فيكون المبدأ أن يكون الحكم لمن يسيطر بدل ذوي القربى كما في المجتمعات البدائية. إن كل دولة تبدأ بالقهر لكن سرعان ما تصبح عادات الطاعة مضمون الضمير، ثم سرعان ما يهتز كل مواطن بشعور الولاء للعلم!.

ولما تم للدولة بناؤها، مَدَّت حبائلها من سلطان وقانون وأخذت توسع نطاقها شيئا فشيئا؛ ورغم أنها صيَّرَت الحرب الخارجية أكثر تخريباً مما كانت قبل تكوينها، إلا أنها استطاعت أن توسع السلام الداخلي وتثبت أركانه؛ ولك أن تعرف الدولة بأنها "**سلام في الداخل استعداداً للحرب في الخارج**".

والدولة كما يؤرخ لها ديورنت، لا تعتمد القوة وحدها حتى لا يتقوض بناؤها سريعاً، لأن الناس لطبعهم ذوو عناد؛ والقوة مثل الضرائب تبلغ أكثر نجاح لها إذا كانت خفية غير مباشرة؛ ومن هنا لجأت الدولة

لأدوات كثيرة تستخدمها وتصطنعها في بث تعاليمها – كالأسرة والكنيسة والمدرسة – حتى تبني في نفس المواطن عادة الولاء للوطن والفخر به، ومثل هذا التماسك لابد منه في حالة الحرب.

كانط لا يستبعد الفلاسفة من تصوره لبناء السلم، فالدولة يجب عليها أن تبادر بالتوجّه للفلاسفة لتستحثّهم على الإدلاء بآرائهم علناً وبكل حرية ليعبّروا عن "**المبادئ العامة التي يتحتّم الاهتداء بها في معالجة موضوع الحرب والسلم**". والإنسان ليس كائن العنف والحرب والقتل والتدمير فقط؛ بل كائن العقل والتدبير والتفكير والتنوير، وبقدر ما يمكننا أن نلاحظ تقدم البشر في وسائل القتل يمكننا أن نلاحظ تقدمهم في التحرر من الاستبداد والاضطهاد.

والسلم والحق والعدل والحرية قيم عالية لا يمكنها أن تتحقّق إلاّ في ظل "**دولة قانون**"، فإذا كان الحيوان قد وجد من يرتّب له حياته بشكل خارجي وبشكل مسبق، فإن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي تُرك لذاته، وليس له من حل للخروج من حالة التوحّش إلاّ التعويل على نفسه، فخلاصه لا يأتيه من الخارج أبدا، وليس لأيّ سلطة غير بشرية أيّ قدرة على تنظيم حياته، "**فالحيوان بغريزته هو سلفاً كل ما يمكن**

أن يكون؛ إذ سبق لعقل خارجي أن رتّب له كل شيء. أما الإنسان فلابد له من استعمال عقله الخاص .. وعليه أن يحدّد لنفسه مسار سلوكه"، بشكل فردي عندما يتعلّق الأمر بحياته الخاصة، وبشكل جماعي عندما يكون داخل الجماعة أو داخل الدولة.

كارل ماركس من جانبه، تبنّى الموقف القائل بأن الصراع بين البشر ينتهي بانتهاء الطبقات، والقضاء على تغول طبقة على أخرى مستعملة في ذلك الدولة كأداة سياسية للقمع؛ فالدولة عند ماركس ليست دولة كل المواطنين؛ بل دولة الطبقة المهيمنة اقتصادياً واجتماعياً؛ وهذا التصور معاكس تماماً لتصور إيمانويل كانت، فالدولة عنده هي الضامن الوحيد لانتهاء كل أشكال العنف والصراع، فحل مشكل العنف عند ماركس مشروط بانتهاء الدولة وانحلالها، بينما حلها عند كانط مشروط بقيام دولة الحق والقانون واستمرارها، بل إن مشروعية دولةٍ ما تقاس بمدى قدرتها على الحفاظ على سلم وأمن مواطنيها من كل ما يمكن أن يتهدّدهم في الداخل وفي الخارج؛ لأن مثل هذا السلم هو عنوان كل تحضّر وسمة كل عيش مشترك.

كان نيتشه أفصح من عبّر من فلاسفة الغرب المحدثين عن رغبة الإنسان الجامحة في الاعتداء والتعنيف، فقال في كتابه: "**ما بعد الخير والشر**": "**أن يمتنع المرء عن إهانة الآخر، وعن تعنيفه وعن نهبه، وأن يقرّ المرء بأن إرادة غيره من الناس معادلة لإرادته، كل ذلك يمكن أن يمثّل – إجمالاً – قاعدة حسنة لسلوك الأفراد .... لكن ما إن نسعى إلى سحب تطبيق هذا المبدأ؛ أي إلى جعله المبدأ الأساس الذي يقوم عليه المجتمع، حتى ينكشف على حقيقته، فإذ هو نفي للحياة، وإذا هو مبدأ انحلال وانحطاط. وينبغي أن نلمس هنا أعمق أعماق الأمور، وأن نمتنع عن كل ضعف عاطفي؛ فالحياة إنما هي في جوهرها سلبُ ما للضعيف والغريب، وجرحه وتعنيفه، واضطهاده، وهي أن يفرض القوي بالغلظة والفظاظة أشكاله الخاصة، وأن يدمجه أو على الأقل (وهو الحل الأرفق) أن يستغلّه ...؛ لأن الحياة هي بالتحديد إرادة القوّة...فليس الاستغلال صنيع مجتمع فاسد وناقص أو بدائي؛ بل هو ملازم لطبيعة الحياة نفسها، وهو الوظيفة العضوية الأولى والأساسية، وهو نتيجة إرادة القوّة في حدّ ذاتها التي هي إرادة الحياة نفسها. وقد نكون بإزاء**

نظرية مستحدثة، غير أننا في الحقيقة إزاء المعطى الأول والأساسي للتاريخ بأكمله. فليكن لنا من النزاهة ما يجعلنا نقر به."!!!

وإذا انتقلنا إلى الواقع وجدنا أن الخبرة التاريخية تمدنا بما يدفعنا لأن نحذر من التفاؤل بانتهاء الحرب الباردة، فلقد بدأ القرن التاسع عشر في ظل الثورة الفرنسية والحروب النابوليونية، التي دامت ثلاثة وعشرين عاماً، وتورطت فيها كل القوى الكبرى التي كانت موجودة آنذاك. ورغم تلك البداية الدامية لم يكن القرن التاسع عشر قرناً مليئاً بالصراعات بين القوى الكبرى، بل كان من الفترات التي شهدت أقل عدد من الصراعات أوروبيا قياساً بغيره.

وينطوي هذا الاستنتاج على تحيز ينبغي التوقف عنده، و**ميرشايمر** يعتبر صراعات الهيمنة هي الصراعات بين القوى الكبرى وحسب، مغفلاً عن عمد النشاط الواسع لحركة الاستعمار الغربي في عالم الجنوب/ الشرق حيث نقلت "**القوى الكبرى**" صراعاتها على أرض الشعوب الأضعف، كما استنزفت حركة الاستعمار القسم الأكبر من طاقاتها العسكرية، بل في أحيان كثيرة كانت هذه القوى تخوض صراعات

دموية بالوكالة هدفها الهيمنة، فترث دولة مستعمرات دولة أخرى أو تقتسمها معها وهكذا.

وعندما ينتقل للقرن العشرين يقول إنه بدا خلال سنواته الأولى هادئاً، ثم يصبح أشد قرون التاريخ الغربي اشتعالاً. والدول الأوروبية كافة – وضمن ذلك بريطانيا وفرنسا – لم تزل تخشى تحوّل ألمانيا إلى قوة عسكرية كبرى، إذا لم تستمر السياسة الأمريكية في تحجيمها.

والهدف الأسمى لأي دولة حسب نظرية ميرشايمر تنمية نصيبها من القوة العالمية على حساب الدول الأخرى، أما الدول الكبرى فتتجاوز ذلك ساعية إلى أن تكون القوة الأولى بل القوة المهيمنة، أي القوة الكبرى الوحيدة في النظام الدولي. وبطبيعة الحال لا تسعى أية دولة إلى تثبيت توازنات القوى ما لم تكن في وضع القوة المهيمنة، ولا تشبع الدولة إلا إذا حققت الهدف النهائي وهو الهيمنة. ولما كان من المستحيل تحقيق ذلك فإن العالم يظل محكوما بقاعدة "**الصراع الأبدي**".

وتمدنا الخبرة التاريخية للسياسة الدولية بما يؤيد ذلك، عبر التاريخ، وذلك بالتركيز على سجل علاقات الدول الكبرى منذ الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر حتى نهاية القرن العشرين. وبالنظر إلى القوى

الكبرى الأوروبية نجد أنه قبل أن تصبح الولايات المتحدة واليابان قوى دولية كبرى في نهاية القرن التاسع عشر فرضت هذه القوى الأوروبية هيمنتها على السياسة الدولية. وقد شهدت هذه الفترة حروباً ثلاثة هي الأطول والأكثر دموية في التاريخ الحديث: حروب الثورة الفرنسية حروب نابليون (1792 – 1815)، والحرب العالمية الأولى (1914 – 1918)، والحرب العالمية الثانية (1939 – 1945) وقد تورطت فيها القوى العظمى كافة. أما فترات السلام التي شهدتها أوروبا فكانت بين عامي (1816 – 1852) وبين عامي (1871 – 1913) وبين عامي (1945 - 1990) إبان الحرب الباردة.

ونظرية ميرشايمر التي تحكم العلاقات الدولية منذ عقود تتأسس على أن التنافس بين القوى الكبرى من أجل الهيمنة يقوم على فرضيات أهمها أن النظام الدولي – في غياب حكومة عالمية – هو نظام فوضوي، وأن من المستحيل أن تتيقن دولة من نوايا الدول الأخرى، وأن البقاء هو الهدف الأسمى للقوى الكبرى وهو الذي يهيمن على الدوافع الأخرى كافة، وهو ما يعني أسبقية الأمن. ويسفر التفاعل بين هذه العوامل

مجتمعة عن ثلاثة أنماط للسلوك هي: الخوف والاعتماد على النفس وتعظيم القوة.

والقوى الكبرى تخاف من بعضها وتنظر كل منها للأخرى بعين الشك ولا مجال يذكر للثقة المتبادلة، صحيح أن هذا الخوف يتفاوت بحسب الزمان والمكان ولكنه لا يختفي فكل دولة كبرى تنظر إلى الدول الكبرى الأخرى بوصفها أعداء محتملين، فخوف الاتحاد السوفيتي من ألمانيا عام 1930 كان أقل بكثير من خوفها منه عام 1939. ويكشف رد الفعل البريطاني الفرنسي على توحيد ألمانيا في نهاية عهد الحرب الباردة عن صدق هذا التحليل، فرغم تحالف فرنسا وبريطانيا وألمانيا على مدى ما يقرب من خمسين عاما فإنهما أعربتا عن قلقهما من ألمانيا الموحدة. وخلو العالم من سلطة مركزية تلجأ إليها الدولة المهددة لتطلب منها العون وبالتالي تضطر للاعتماد على نفسها أو على اتفاق مصلحتها مع مصلحة طرف ثالث، ولو كانت ساحة السياسة الدولية مجرد سوق اقتصادي – والكلام لميرشايمر – لما تنافست الدول الكبرى ذلك أن المنافسة السياسية قد تؤدي للحروب وهو ما يحول المنافسين إلى أعداء.

وتأتي الأحلاف ضمن الوسائل المعروفة لتعزيز الأمن لكنها "**زواج مؤقت**" فحليف اليوم قد يكون عدو الغد، والأنانية مطلوبة مفيدة في عالم الاعتماد على النفس على المدى القصير والبعيد على السواء. ومنذ أن أطلق إيمانويل كانط مقولته الشهيرة "**كل دولة أو كل حاكم دولة يرغب في التوصل إلى سلام أبدي بقهر العالم كله لو أمكنه ذلك**"، فإن الهيمنة ظلت أمنية الجميع حيث تعد الوضعية المثلى التي تتمنى كل دولة الوصول إليها، ونوايا الدول الكبرى عدوانية بالضرورة!!

ولقد شهدت الفترة من عام 1815 إلى عام 1980 ثلاثة وستين حرباً فاز البادئ فيها في تسعة وثلاثين منها. وتمكن بسمارك من توحيد ألمانيا بانتصاره عسكرياً على الدانمرك (1864)، والنمسا (1866)، وفرنسا (1870)، ولعب الغزو في القرن التاسع عشر دورا مهما في تشكيل الولايات المتحدة. ولو أن هتلر توقف بعد غزو بولندا (1939) وهزيمة فرنسا (1940) ولم يغز الاتحاد السوفيتي ربما تغيرت نتيجة المغامرة النازية.

ويراد بالدولة المهيمنة الدولة التي تحوز من القوة ما يجعلها تتحكم في الدول الأخرى كافة بحيث لا تملك أي منها القدرة العسكرية على

شن حرب عليها، وهي بتعبير آخر القوة العظمى الوحيدة في نظام دولي لا توجد فيه قوى عظمى أخرى، وبطبيعة الحال لا يلزم أن يكون لدى المهيمن القدرة على هزيمة كل منافسيه مجتمعين، بل يكفي أن تكون هناك فجوة واضحة بينه وبين القوة الكبرى التي تليه. وبهذا المعنى فإن بريطانيا في القرن التاسع عشر كانت الدولة القائدة للنظام العالمي، لكنها لم تكن الدولة المهيمنة لوجود أربع دول أخرى تعد كل منها قوة كبرى: النمسا – فرنسا – بروسيا – روسيا)، وهو ما يعني أن النظام الذي ساد أوروبا خلال القرن التاسع عشر لم يكن أحادي القطبية. فالهيمنة تعني السيطرة والتحكم في العالم كله. وقد تصح التفرقة بين دولة مهيمنة إقليميا ودولة مهيمنة عالمياً. ورغم أن القوى العظمى تهتم بالأساس بالدول ذات القدرات العسكرية الكبيرة بوصفها تهديداً ملموساً، فإنها تهتم أيضاً بالقوة الكامنة للدول المنافسة التي تتمتع بثراء اقتصادي ووزن سكاني كبير لأن مثل هذه الدول تستطيع عادة بناء جيوش قوية، فهي تميل للخوف من أن تترجم الدول ذات الحجم السكاني الكبير النهوض الاقتصادي إلى قوة عسكرية.

وبطبيعة الحال تستخدم الدول قوتها وفقاً لهرم من الأهداف يحتل قمته "**البقاء**"، وإذا كانت الهيمنة تشكل مشكلة مزمنة للقوى الكبرى تشبه دورات العود الأبدي في استمرارها اللانهائي، فإنها تشكل كارثة للدول الضعيفة. ففي العالم الدارويني الذي يرسمه ميرشايمر – وهو للأسف أقرب ما يكون للحقيقة – لا يحتاج أحد إلى من يذكره بمقولة "**ويل للمغلوب**"، لكن المغلوب عادة يفرط في أسباب القوة فيصنف في خانة المغلوب.

الايمان بالعنف

هذه الواقعية الدموية نتاج ثقافة تؤمن بالعنف إيماناً عميقاً، ولا تراه مجرد وسيلة بل "**حالة فطرية**"، وتاريخ أوروبا الحديث زاخر بالحروب والمجازر، مليئ بالصراع المسلح والدماء السائلة، مفعم بأعمال العنف والتخريب. وهو تاريخ يكشف – إلى حد كبير – عن عقلية تؤمن بسياسة العنف، وتنفر من سياسة السلام بين الشعوب، ولا تعتقد إلا بسياسة القوة كوسيلة لحل المشاكل الدولية. ومن الواضح أن أوروبا في

تاريخها الحديث لم تنجح في حل أمر من أمورها المحلية أو الدولية عن طريق المفاوضة أو التفاهم السلمي، وإنما لجأت طوال هذا التاريخ إلى صراع مسلح عنيف دام بين الدول الأوروبية نفسها، أو بين الدول الأوروبية ويقية العالم. وليس من المبالغة أن أوروبا قد بلغت في هذا المجال درجة كبيرة من الوحشية، لم يصل إليها العالم في تاريخه الطويل القديم أو الحديث.

وليس من شك فى أن أوروبا في عصرها الحديث – أي ذلك العصر الذي تزعم أنها وصلت فيه إلى الحضارة – قد جعلت العنف سياسة متبعة، وفلسفة مقررة، ومبدأ لا تنحرف عنه. وتملأ فلسفة العنف تلك الرؤوس التى تتحكم في السياسة، وتقود مصائر الشعوب، ويجر مبدأ العنف الكثير من خيوط الثقافة والتعليم ولا تخرج عن نطاقه. تطبع سياسة العنف ما يطبق فيها من قوانين

والحروب ظاهرة من ظواهر العنف، كما أنها تدل دلالة واضحة على الإيمان بالعنف كمبدأ وسياسة. ومن السذاجة الشك في ذلك، لأن الانسان الذى يكره العنف يكره الحروب، والإنسانية التي تعشق السلام لابد أنها تبغض العنف وتنفر من كل مظاهره. لقد استراحت أوروبا فترة

قصيرة من الوقت بعد تلك الحرب العالمية – أو على الأصح الأوروبية – الأولى، وذلك لتستجمع قواها من جديد، ولتحاول أن تصل إلى اختراع الآلات جهنمية جديدة لحرب جديدة. واشتعلت الحرب العالمية الثانية في أوروبا، وانطلقت الوحوش الأوروبية من جديد لتقتل وتخرب وتعذب، وتحيل أوروبا إلى جحيم رهيب مفزع عدة سنوات.

ولم تكن الحرب الأولى أو الثانية صراع بين جيش وجيش في ميدان حرب، وإنما كانت الأولى كما كانت الثانية مجزرة عامة، قتل الجندى وعذب كما قتل وعذب المدني، ولم يعد هناك ميدان حرب محدود يتلاقى فيه جيشان أو أكثر، وإنما صارت أوروبا كلها مساحة واسعة للقتل والتخريب وإثارة الخوف والرهبة والتعذيب، ولم يقتل فقط محترفو الحرب من العسكريين، وإنما قتل المدني في المدينة، وكل منا لا يزال يذكر أيضاً كيف أحال الجيش الألمانى أثناء زحفه في الاتحاد السوفيتى وأثناء تراجعه من أراضيه، كيف أحال كل شئ إلى مقبرة هائلة مليئة بالجثث البشرية وغير البشرية، وكيف كان يشعل النيران في كل ما لم تستطع القنابل أن تحمله وتزيله من الوجود.

كما كشف العنف الأوربي عن عبقريته الوحشيه الفذه عندما أخذ أثناء الحرب العالمية الثانية يبني "**المصانع**" الضخمة لقتل الناس بالجملة، فأقيمت صالات كثيرة للقتل الجماعى عن طريق الغازات السامة القاتلة، فكانت آلاف الناس تجبر على الوقوف في صفوف طويلة ساعة بعد ساعة، ثم تتقدم هذه الآلاف من النساء والأطفال والعجائز والعمال والمثقفين نحو الأبواب الضخمة، وعندما تضيق تلك الصالات بما فيها، تغلق الأبواب، وتفتح أنابيب الغازات القاتلة، وتتساقط الجثث كالذباب، وبعد ذلك تحرق هذه الجثث، أو تدفعها الآلات الضخمة في حفر عميقة واسعة كما تلقى القاذورات. وقد كانت هذه المصانع المقامة للفتك والقتل تبدأ عملها هذا بعد فترة طويلة من التعذيب، قضتها تلك الآلاف في مصانع أخرى خاصة، بنيت لتعذيب الناس، والتفنن في اختراع وسائل التعذيب.

لقد تجاوزت وسائل العنف الأوروبي الحدود التى يمكن للعقل الانسانى تصديقه، لقد قص شعر هؤلاء الضحايا قبل ارسالهم إلى مصانع القتل، ثم صنع منه السجاد! إن هناك متاحف في بعض الدول الأوروبية لضحايا النازية، وتضم هذه المتاحف الكثير من الحقائق التى تدل بوضوح

تام على مدى العنف الذى وصلت إليه الطبيعة الأوروبية، وعلى مدى تفننها في هذا المضمار. وكم كان من المنطقي أن تسمى هذه المتاحف "**متاحف العنف الأوروبي**"، أو "**متاحف الحضارة الأوروبية**"!

ولما كان منطق الأرقام منطق قوى حاسم، فإن من الأفضل سرد بعض الاحصاءات عن ضحايا الحربين، وهى احصائيات قم بها الأوربيون أنفسهم:

ضحايا الحرب العالمية الأولى عشرة ملايين نسمة

وضحايا الحرب العالمية الثانية ثلاثين مليوناً من البشر

أى أن أوروبا قتلت أثناء حربين في النصف الأول من هذا القرن أربعين مليوناً من البشر!

وهى أرقام تحمل أصدق الأدلة على مقدار ما بلغته أوروبا من عنف، وعلى مدى ما وصلت إليه الطبيعة الأوروبية من حقارة وانحطاط. وهى أرقام تفوق كل ما يمكن للعقل الإنساني أن يتصوره، ولولا أننا عشنا في هذا القرن!.

ويرى الكاتب زين العابدين الركابي أن أوروبا هي "**حقل الشوك الأعظم**" الذي نبت فيه الإرهاب واستغلظ وملأ الأرض :رعبا ودما وينقل عن الكاتب جون غراي قوله: "**اتجاه أن الإسلام مصدر الإرهاب اتجاه غربي مزيف للحقائق. ذلك أن فكرة تغيير العالم عن طريق الإرهاب ليست فكرة منبثقة من الإسلام، بل على العكس هي فكرة غربية. فمنذ اليعقوبيين، ومروراً بلينين وستالين إلى منظمة بادر ماينهوف، ظل الغرب المعاصر يضخ أيديولوجيات وحركات تقول باستخدام العنف من أجل عالم أفضل**". وهذه الشهادة مؤيدة ومؤصلة بشهادة مؤرخ أوروبي مشهور بدقته وتحليله في تسجيل الوقائع وتفسيرها وهو هربرت فيشر. فقد قال . في كتابه: "**تاريخ أوروبا في العصر الحديث**": "**في فرنسا، أدى نشوب الحرب عام 1792 إلى تكوين حكومة الإرهاب. إن ذكرى دانتون غارقة في الدماء والعنف، ولن يغفر له: إغضاؤه عن مذابح سبتمبر 1792 المروعة. لقد كان الإرهاب في نظر دانتون، كما هو في نظر جميع رجال السياسة: أداة ضرورية من أدوات السياسة والحكم. وهكذا كان دانتون مستعداً**

لأن يستخدم أي تدبير إرهابي يراه ضرورياً لإلقاء الرعب في قلوب أعداء الثورة".

لقد كانت أوروبا المصدر الاعظم للعنف الدامي، والإرهاب المجنون في القرن العشرين، إن الحركات الثلاث الكبرى الارهابية في القرن الماضي، بل في التاريخ البشري كله، إنما هي إنتاج أوروبي:

الصهيونية:

ويكفي أن ننقل من كتاب "**الدولة اليهودية**" لتيودور هرتزل:

"لا يتم تأسيس دولة الآن بالأسلوب ذاته الذي كان يستعمل قبل ألف سنة. فلنفترض بأننا أجبرنا على أن نخلي بلداً ما من الوحوش. ففي هذه الحال يجب علينا ألا نقلد الأوروبيين الأقدمين بأخذ الرمح كل على حدة، ونبحث عن الدببة، بل يجب علينا تنظيم حملة صيد كبيرة ومن ثم نجمع الحيوانات كلها معاً، ونلقي في وسطها القنابل المميتة"..

الشيوعية:

الحركة الشيوعية، إنتاج أوروبي، وهي حركة قامت على فكر العنف، ومارست العنف على اوسع نطاق. فالبيان الشيوعي الأول يقول: "**إن الشيوعيين يعدون إخفاء آرائهم ونواياهم عملاً عقيماً بلا جدوى، وهم يعلنون جهراً: أن أهدافهم لا يمكن تحقيقها إلا بقلب النظام الاجتماعي الحالي بأكمله بوسائل العنف**"، وفلسفة العنف هذه ذبحت 20 مليون إنسان وبين 1937 و1938، أي في عام واحد ارهب ستالين وقتل مليون إنسان رمياً بالرصاص ومليون في معسكرات العمل.

النازية

النبع الاساسي لهذه الحركة هو: تمجيد العنصرية، واعتماد العنف سبيلاً لنصرة العنصرية. وبناء على الفكرة والفعل اشعلت النازية الحرب العالمية الثانية التي قتل فيها وشوه أكثر من 30 مليون إنسان.

العنصرية والصراع

كان الصراع دائماً وعلى مر العصور ابناً شرعياً للعنصرية، فالفكر العنصري وفكر الصراع – معاً – هما الأرضية التى تقوم عليها شرعة الغاب، ليحصل الطرف الأقوى على ما يريد تحصيله ولو تجاوز به حقوقه، وليفقد الطرف الأضعف ما يريد تحصيله ولو كان من صميم حقوقه، ونحن إذا أمعنا النظر في عيون الأدب اليوناني القديمة سوف نلمس بِكل سهولة مدى قوه النبرة الطبقية الاجتماعية، وتغلغل نعرة الطائفية الفكرية والأخلاقية التي كانت غالبة على خطابها الشعري بكل صرامة، والتي أسست لتيار يؤمن بعقيدة العنصرية حتى اليوم بغير مبالغة!

فعلى سبيل المثال، نجد أن "**إلياذة**" هوميروس و"**الأوديسة**" لا تكرمان غير طبقة الأشراف، ولم يوجه صاحباهما نظرهما أبداً إلي طبقه العامة: إذ يري أن هذه الطبقة لا تتطلب من المرء أي اهتمام، ولقد كانت الحرب بين طبقة وطبقة، وهي الحرب التي استعرت نارها في جميع الدول اليونانية، وهي كانت أشد هولاً من الحرب بين اليونان والفرس، أو بين أثينا وإسبرطة!

وبصفه عامة، فإن كل من يطالع تاريخ العالم، ويعرف أن أكثر الحروب في العالم أو كلها نشبت بسبب حمية الفخر لعصبية ما، فالألمان يعتقدون أن قومية "**الجرمان**" تفوق القوميات الأخري، والأوربيون يفضلون البيض على غيرهم، وتأتي النظرية العنصرية التي شيدها جوبينو (1816 – 1882م) مع علماء أجناس آخرين، لتشيد أسطورة عروق الشمال، وحصرت الرقي بها والانحطاط بغيرها ... وأرست قاعدة راسخة للوعي العنصري الذي يعود تاريخة إلى القرن السادس عشر الميلادى، حيث لم تكن قبله دراسات حول الأجناس والتفاضل بينها، سوى إشارات وانطباعات لاهوتية، وهي رغم عمقها لم تنطلق من قاعد عملية أنثروبولوجية. وكان الفلاسفة في أكبر بلدان أوربا وأمريكا، لديهم من البراهين الذرائعية ما يدل على أنهم "**يتمتعون بالتفوق على الشعوب الأخرى وأنه مقدر لهم أن يطوعوا جميع الشعوب لمطلق إرادتهم**".

ولقد بلغت العنصرية الأوربية ذروتها التاريخية بالنازية، حيث استجمعت قواها، استكملت زخمها وركزت ثقلها لتتحول من مجرد ظواهر متقعطة إلى منهج عملى صارم وشامل التطبيق في مجالات السياسة والاجتماع والثقافة والعلوم الفنون والآداب، فلقد كان النازية التى تعبر عن

قمة النشاط العنصري في العالم خلال القرن العشرين بصورة متميزة ومثيرة، ذلك أن النازية لم تكن مجرد مذهب سياسى، وإنما كانت بمنزلة روحٍ خبيثة تسرع في الضمير الأوروبي .. وتغلي بها دماء العرق الأري حتى لقد جد منهم ما ضرب صفحاً بالقيم والمثل الإنسانية كافة على تفاوت درجاتها.

وعلى صعيد أخر، فإن الصراع بين الصهيونية اليهودية والنارية الهتلرية كان قائماً – من حيث الشكل – عل أساس التعارض فى أولويات التفوق؛ فاليهود يرون تفوقهم الجنسي السامي مؤكداً بصورة مطلقة؛ أما الألمان، فيرون تفوق الجنس الأري بشكل لا جدال فيه، بين الأريين كليهما حصل النزاع ووقع الصراع ف "**الصهيونية تفسير قبلي متعسف ومزيف لإرادة الله وذلك لإخفاء نواياتها الدفينة وأهدافها السياسية**"، ولقد ظنت البشرية بوفاة "**هتلر**" أنها ستكون نهاية الحقبة العنصرية في التاريخ، إلا أن النتيجة المؤسفة التى توصل إليها خبراء منظمة اليونسكو قد أشارت إلى أنها "**كانت نظرة ضيقة لأن فكرة التفوق العنصرى متأصلة فى غالبية البيض**".

والحقيقة أن جنون العظمة الذي كرستة الداروينية الاجتماعية لدى الغربيين قد عمق نشوة الإحساس بسمو الجنس واستعلاء العقل وبأن الاجتباء اللوني الأبيض له خصوصية غربية تنبع من تصورات عنصرية مزعجة تجاة الآخر: "**الضعيف**"، "**الهمجي**"، "**غير الجميل**".

والإطار الفلسفى المتمركز حول المبادئ "**الانتخاب الطبيعي**" و"**البقاء للأقوى**" و"**الإنسان الأعلى**" ... وغيرها شمل جوانب عديدة من حياة المجتمعات الغربية دينياً وأدبياً وفلسفياً، وحتى في إطار فلسفة الجمال صار لواء البقاء وفقا لهذة المعطيات الفلسفية معقودا لـ "**الأجمل**"، هذا الأجمل هو صاحب اللون الأبيض الخمري والعينين الرزقاوين.

وانطلاقاً من الشعور الغامر بالثقة والتفوق الحضاري المبني على افتراضات غير أخلاقية في مجملها، يعتمد "**الرجل الأبيض**" أنه مكلف برسالة مقدسة لكنة يحمل عبء هذة الرسالة بجبور وجشع مشبوهين، فالمبشرون والتجار والعسكريون من مختلف الدول يتنافسون بشراسة وأحياناً تنافساً دامياً من أجل السيطرة على مناطق جديدة، هذه الأمراض العرقية والثقافية والدينية الوراثية الكامنة في عمق الفكر الغربي.

وتعد المدرسة الألمانية في الفكر الغربي قمة هذا الجموح العنصري، وقد كان لاحتلال الجيش الفرنسى ألمانيا وإمعانه في إهانتها – حكاماً ومحكومين – ردة فعل قوية قوية داخل أوساط المجتمع الألماني، ولا سيما مجتمع المفكرين والفلاسفة .. الأمر الذى شحذ عزيمتهم نحو استرداد هيبتهم وذاتيتهم المهانة وكرامتهم الجريحة واعتبارهم القومي المهدر ... فكان ذلك أحد أسرار تأجج النزعة القومية والاعتزاز العرقي والعصبي إلى درجة القومية الشوفينية أو العنصرية ولقد جاءت فى مقدمة "**أولئك، أثنان ممن تركوا أبرز بصماتهم على مسيرة الفكر والفلسفة ليس فى ألمانيا ولا فى أوروبا وحسب، بل فى العالم كلة تقريباً .. .... الفيلسوفان الألمانيان: فيخته وهيجل**".

ولقد جاء ذلك الجيل من الفلاسفة الألمان، ليقود أوروبا بكل قوة نحو تجديد الأفكار اليونانية الداروينية التقليدية التى ارتدت قناعاً فاشيا تارة، ونازيا تارة، ويمينياً قومياً تارة أخرى، فلقد نشأت النازية فى ألمانيا لكى تعطى الجنس الأرى التفوق والصفاء العرقي على باقي الأعراق الأخرى، يقول الفيلسوف الألماني "**هردر**" إن: "**الأجناس البشرية ليست متساوية في استعدادها للتحضر. فإذا كانت الأجناس تتمايز**

فيما بينها فى مظهرها الفيزيقي، فإنها تتفاوت أيضاً في مدى التأثر بمظاهر المدنية، وفي تمثُّلها لمقومات الحضارة؛ ومن ثم فهناك أجناس بشرية خُلقت للترقى وأخرى قُضي عليها بالتأخر".

وكما وضع كل من هيجل وفيختة بذرة التفوق الأري للجنس الألماني، فاعتنقا نظرية النشؤ والإرتقاء والبقاء للأصلح مبكراً، حيث يقول فيختة: بأن "**الجنس الجرمانى هو: الجنس المختار، وأنه الجدير بالخلود والبقاء**". وبهذا تجدد ظهور الفكر العنصرى انطلاقا من ألمانيا، التى كانت منذ البدء، ولم تزل قاعدتة الكبرى؛ ففي عام 1807م ألقى فيختة خطاباً في الألمان، إبان الإحتلال الفرنسى لبرلين، قال فيه: "**أنتم وحدكم أيها الألمان من بين جميع الشعوب الحديثة: حاصلون على جرثومة التقدم الإنساني بأظهر ما تكون، فإذا هلكتم: هلكت معكم الإنسانية جمعاء**".

ولئن كان فيخته واحداً من أكثر الفلاسفه الغربيين استنادًا إلى فكرة "**الأخلاقية القومية**" إلا أنه عوَّل كثيرا على قوة الطبقة البرجوازية "**الجديرة بالبقاء**" ودورها فى أصلاح الكنيسة؛ ذلك بأن هذه الطبقه من

وجهة نظره: هي "**الأقوى بين الطبقات التي يمكن البرهنة على أن ما بقي من هو جدير بالتعظيم قد انبثق على هذه الطبقة**". وحين يفترض فيختة في هذة الطبقة التقى والاستقامة والتواضع والبساطة والتعاون ... فإنما يفترضة إستناداً إلى ما تحوزه من أهليات للحياة، ومن قدرة تاريخية على العطاء من أجل الاستمرار فى بقاء الجنس الألماني.

وهناك من يعزو نجاح ألمانيا إلى أنها كونت فى وسط أوروبا جداراً يعزلها عن العروق اللامتجانسة.

ووفقا لهذة الرؤية القومية المتعصبة، كان فيختة دائماً، يشير إلى تبعات هذا الشعور إزاء تأمين بقاء هذة الروح القومية عند أعلى مستوياتها من الأصالة والتألق والتأنق ... ويقول: بأن "**شعباً وفياً لطبيعتة يستطيع إذا ضاقت علية أرضه، أن يوسعها بغزو أرض الجار وبطرد سكانها الأصليين منها، وقد يريد تبديل أرض قاسية المناخ وتربتها مجدبة بمنطقتة ألطف وأسخى، وفى هذه الحال يطرد منها أيضاً قاطنيها السالفين، وقد يعمد حين يمر بمرحلة الإنحلال إلى حملات نهب وقطع طرق لا من أجل أن يستولي على الأرض أو يحتل مكان أصحابها الطبيعين**". ولقد كان التاريخ لدى فيختة،

مساوياً في قيمته "**للتوراة وقيثارة المزامير، فإنه من الأجدر أن يضحى كتاباً شعبياً، كتاب الأمة والشعب**".

وإذا نظرنا إلى فلسفة هيجل التي كانت بمنزلة الوعاء الفلسفي الذى أنصبت فيه جميع تيارات الفلسفة القديمة، وتفرعت عنها جميع تيارات الفلسفة الحديثة: ولذا، يقولون إن ثورة ألمانيا كانت دائماً "**فلسفية**"، قد تجسدت بشكلها السياسى فى فرنسا وبعض دول أوروبا بأنساق متفاوتة ففي بداياته، هرب هيجل من الجغرافيا الألمانية المزعجة ... إلى التاريخ الذهنى لفلسفة اليونان، ذلك التاريخ الذى أراد الإنسان الغربى أن يصنعة، فلابد أن يكون واعياً بأن من أراد أن "**يحدد رغباته فإنما يوقع على هلاكه؛ فإن أحداً لا يريد أن يشارك أحداً فيما يمتلك وحده؛ كلُ يريد أن يسلب الأخر ما يخصه كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فإذا هدأ أحدهم، فالسبب: إحساسه أنه على قوة تمكنّه من خوض معركة، ومتى أحس بالقوة الكافية نهض إليها**".

وحينما سطع نجم فلسفة هيجل فى سماء القرن التاسع عشر الغربى، كانت أشهر المقولات الهيجلية رواجاً: أن "**الآخر ضروري لوعي**

الذات، وبدونه ليست الذات شيئا؛ لأنها تعي نفسها بمقدار ما تعي الأخر". ولكن الذات الواعية للآخر، التي يتحدث عنها هيجل بحسب قانون الحياة، هي، أولاً، ذات تتحدد من خلال التوتر بين المتناقضات إلى درجة الصراع مع الآخر، ونفية خارج الحدود الأخلاقية للتنافس الطبيعي في السياق العام للحياة الإنسانية.

وبصورة تنم عن عجز غريزي عن التكيف مع الآخر، وعدم قدرة على تحقيق مصالحة بين تناقضات النوع الإنساني إلا من منطق فوقي ضدي غير متوازن .. ولتتشكل في وعي الأقوى ملامح أخرى للعلاقة مع الأخر في حدود: السيد والعبد، حيث لا اعتبار لقيم التعددية والغيرية والتعايش المتكافئ المحترم. الأمر الذى يحدو بالأخر الأضعف حيلة إلى تعليق فعاليات هذه العلاقة، حتى يتسنى التحول بها إلى سياق أخر من الندية حينما تسنح الفرصة؛ ففي الفلسفة الهيجيلة نجد أن صراع المتناقضات يؤدي إلى التطور أو إلى إيجاد ظواهر وحالات جديدة على أنقاض القديمة.

وقد تبنَّى هيجل المنهج الديالكتيكى الذى لا يجد سبيلاً إلى حقائق الحياة إلا من خلال الصراع. فهو لم يفهم الجدل إلا على أساس

أنه "**مصالحة الأطراف المتضادة فيما بينهما**"، فالمصالحة تخلق التفاعل، والتفاعل ينتج المشكلات والقضايا ... وهذه الأخيرة تتسبب في الحرب .... ويلخص هيجل "**فلسفة الحرب في التاريخ**" بقوله: "**إن فترات السعادة فى العالم: هي فترات الخواء، فترات الإتفاق بدون صراع، ولكن الحرب نعمة؛ لأنها مطهرة، وهى تصلح من صحة الشعوب التى يفسدها طول السلام، كما يحفظ هبوب العواصف البحر من العطب لو أنه كان ساجياً ساكناً لمدة طويلة**".

ويمكننا تصوير فلسفة هيجل في جدليات الصراع والتناقض فى معادلة موجزة: **تدمير = بناء**.

خرافات: الداروينية والمالتوسية والندرة

لقد صنعت خرافات: "**الدارونية**" و"**المالتوسية**" و"**الندرة**"، الأرضية الخصبة لـ "**ثقافة الصراع**"، فمع العقود الأولى من القرن التاسع عشر، برزت فكرة الدولة الإقليمية فى فضاء الفكر الغربى، وأخذت خريطة العالم تتهيأ لأكبر عملية تغيير فى التاريخ، وصارت أفكار التوسع

الجغرافي الاستعمارى موضوعاً ضمن أهم ترتيبات أجندة الحياة الغربية دائماً ... ولقد كان أسوأ ما فى تلك الحركة الاستعمارية، أنها كانت مؤسسة على رؤى فلسفية غلبوية مفرطة فى الغلو والتطرف ... وقد كان هناك هاجس فى الضمير الأوروبى يقول بأنة بعد فترة وجيزة ستصبح المواد الأولية الضرورية "**لا تكفى لسد حاجة الصناعة التي امتدت إلى مناطق جديدة. وكان تطبيق الأساليب الحديثة في الإنتاج الضخم وسيلة لبعث الحركة الاستعمارية التى تزعمها الرجل الأبيض**".

ولقد كانت هناك نظريتان تنزلان العوامل البيولوجية فى الصراعات السياسية منزلة الصدارة والإعتبار، هما: نظرية "**تنازع البقاء**" و"**النظرية العرقية**" .... وكانت هاتان النظريتان تعنيان بطبيعة تداعيات الصورة التى رسمها **تشارلز داروين** لتطور الأنواع الحيوانية فتنقلها من مجتمع الغابة التقليدية إلى ساحة المجتمعات الإنسانية؛ حيث ترى أن "**كل فرد لابد أن يصارع الأخرين ليبقى، ولا يبقى إلا من هو الأفضل**"؛ فـ "**الانتقاء**" أو "**الانتخاب الطبيعي**" يكفل بقاء خيار الناس.

ونجد من الضرورة بمكان أن نحيط ببعض ما يلزم السياق من معان حول فكرة "**قانون تنازع البقاء**" لكل من: مالتوس وداروين، فلما لم يكن ثمة تناسب بين ما تجود به البيئة الطبيعية من مقاومات الحياة، وبين ما يولد من كائنات عضوية بأعداد هائلة، كان لابد أن يحدث تصارع على هذه المقومات الحيابيئية بين أفراد كل نوع من المخلوقات على خلاف، ولكن لما كانت هناك مزايا وفروق بين أفراد النوع الواحد، كان لابد أن تتولى فرص وظروف الحياة الراقية لعدد من من أفراد كل نوع يحوز الفروق والمزايا الجيدة، بينما تعاكس تلك الظروف باقي الأفراد من النوع نفسه بالنظر لرداءة ما تحمله من مزايا وفروق ... ونتيجه لذلك الصراع المستمر ... سوف يكون الفوز للأقوى الأصلح. وهذا ما أصطلح عليه التطوريون بـ "**بقاء الأصلح**"؛ حيث اعتقدو أن "**الإنسان جاء إلى حيز الوجود بالصدفة البحتة وأنه حيوان تطور بالقتال من أجل البقاء**". ذلك ولم يكن للقيم والعقائد أى اعتبار فى رؤية **داروين** باعتبارها أحد معوقات صراع البقاء.

وفي الجزء الثاني من "**كفاحي**" الذي رفع عنه حجاب السرية مؤخراً يخصص هتلر الفصل الأول الحرب والسلام وفيه يقول:

"إن السياسة هي التاريخ في مرحلة التشكل. التاريخ نفسه هو عرض لمسار كفاح شعب في سبيل الوجود. وأنا أتعمد استعمال عبارة الكفاح لأجل الوجود هنا لأنه، في الحقيقة، ذلك الكفاح من أجل الخبز اليومي، سواء في السلم أو الحرب، معركة أبدية ضد الآلاف والآلاف من العقبات، بالضبط كما هي الحياة نفسها كفاح أبدي ضد الموت. بالنسبة للرجال الذين لا يكادون يعرفون لماذا يعيشون كما يفعل أي كائن آخر في العالم. ووحدها الحياة مملوئة بالشوق للحفاظ على نفسها. المخلوق الأكثر بدائية يعرف فقط غريزة حفظ النفس، في المخلوقات التي تقف على درجة أعلى من السلم نقلت هذه الزوجة والطفل، وفي أولئك الذين يظلون أعلى وصولاً للجنس الكامل. بينما، على ما يبدو، يتنازل الإنسان عن غريزته الفردية لحفظ النفس لأجل النوع، في الحقيقة يخدمه رغم هذا إلى أقصى درجة. وليس نادراً التضحية بالنفس لأجل حياة الشعب، وبهذه التضحية من الفرد وحدها يتحقق له الاستمرار عبر إنكار الذات من الفرد. ومن هنا الشجاعة المفاجئة لأم في دفاعها

عن صغيرها، والبطولة من رجل في الدفاع عن قومه. غريزتا الحياة القويتين الجوع والحب، موازيان لتعاظم غريزة حفظ النفس".

ويستطرد أدولف هتلر: "بينما يضمن تسكين الجوع الأبدي حفظ النفس، يضمن إشباع الحب استمرار النوع (الجنس). في الحقيقة هذان الدافعان هما المسيطران على الحياة. ورغم أن الأقلية الهزيلة من محبي الجمال قد تقدم ألف احتجاج ضد مثل هذا الجزم، فإن حقيقة الوجود الخاص لكل منهم هو ما يفند احتجاجه. لا شيء مما صنع من لحم ودم يمكنه الهرب من القوانين التي اتخذت قرار مجيئه للوجود. وحالما يعتقد العقل الإنساني أنه أرفع منهما (اللحم والدم) يحطم تلك المادة الحقيقية التي هي حامل العقل".

"وعلى أية حال، ما ينطبق على الإنسان الفرد ينطبق أيضا على الأمم. وأي أمة ليست إلا مجموع قليل أو كثير من الكائنات الفردية المتماثلة. وقوتها تكمن في قيمة الكائنات الفردية التي تشكلها في حد ذاتها، وكذلك في الشخصية ومدى تشابه هذه

القيم. نفس القوانينِ التي تُقرّرُ حياةَ الفردِ، وتشكل حاملا لها، هي نفسها بالنسبة للأمة. حفظ البقاء والاستمرار هي الدافع الأكبر وراء كل فعل، طالما كان هذا الجسد سليماً وصحياً ظاهرياً. لذا، فإن نتائج هذه القوانينِ العامّةِ للحياةِ سَتَكُونُ مماثلة بين الأمم، كما هي بين الأفرادِ".

"إذا، لكُلّ مخلوق على هذه الأرضِ، غريزة حفظِ النفسِ، وتهدف بشكل مزدوج إلى صيانة النفس وبقائها، وتلك قوتها الأكثر بدائية. ولكن قابلية الإشباع محدودة، ولذا فإن النتيجة المنطقيّة لهذا هي الكفاح بأشكالِه كافة للبقاء على قيد الحياة وإشباع غريزة البقاء".

"لا حصر له عدد الكائنات الحية على الأرض، وغير محدود في أيَّةِ لَحظَةٍ في أفرادها غريزة البقاء وبالقدر نفسه الاستمرار طويلاً، رغم أن الفضاء الذي فيه تحقق فيه حياتهم جميعا محدود. الحرب من أجل البقاء والاستمرارِ في الحياةِ تشنها بلايين الكائنات الحية على بلايين الكائنات، وهي تحدث على سطح

مجالٍ محسوب بالضبط. الاضطرار لخوض حرب البقاء يَكْمنُ في تقييدِ محدودية مساحة الحياة؛ لكن في صراع الحياة على فضاء الحياة تكمن أيضاً أسس التطور".

ويقول هتلر: "في عصور ما قبل الإنسان، تاريخ العالم صاغته في المقام الأول الأحداث الجيولوجية: كفاح قوى الطبيعية مع بعضهم البعض، خَلْق سطحِ غير صالح للسكنِ على هذا الكوكبِ، انفصال اليابس عن الماء، تشكل الجبالِ، مِنْ السهولِ، والبحارِ. هذا هو تاريخ العالم في هذا العصر. لاحقاً، بظهورِ الحياةِ العضويةِ، اهتمام الإنسان تركّزَ على عمليةِ المجيء والرحيل بأشكالها الكثيرة. وأخيراً، وفقط متأخراً جداً أصبح الإنسان يعرف نفسه، وبالتالي، بمفهوم التاريخ العالمي بَدأَ أولاً وصفة رئيسة وقبل كل شيء فهم تاريخ وجوده، وتطوره الخاصِ. هذا التطورِ ميَّزه كفاح أبدي مِن البشر ضدّ الوحوشِ وضدّ البشر أنفسهم. مِنْ هذا التشوشِ الخفي للكائنات الحية ظَهرت أخيراً تشكيلات: العشائر، القبائل، الشعوب، الدول. إن وصفَ أصولِهم ورحيلهم ليس إلا تمثيلاً للصراع الأبدي من أجل الوجود".

"إذن، على أية حال، السياسة هي تاريخ حال صنعه، والتاريخ هو نفسه عرض لصراع والأمم لأجل وجودهم واستمرارهم، ومن ثم فإن السياسة هي، في الحقيقةِ، حكم بالإعدام على كفاح أمة لأجل الوجود. لكن السياسةَ ليست فقط كفاح أمة دفاعاً عن وجودها؛ بل هي بالأحرى بالنسبة لنا نحن البشر لنا رجال فَنُّ تَنفيذ هذا الكفاح. إذن التاريخ بوصفه عرضاً لصراع الأمم من أجل البقاء حتى اليوم هو في الوقت نفسه التمثيل المُرعَب للسياسةِ السائدة في لحظة مُعطاة، إنه المعلّمُ الأفضل لنشاطِنا السياسي".

"إذا المهمّةِ الأعلى للسياسة هي الحفاظ على بقاء واستمرار أمة، ومن ثم فإن هذه الحياةِ هي المهمة الأبدية التي يحارب لأجلها وعليها ولأجلها تقرَّر هذا الصراع. ومن هنا فإن مهمته هي الحفاظ على مادة صنعت من دم ولحم. نجاحه هو جعل البقاء ممكناً. وفشله هو الدمارُ، ويعني، خسارة هذه المادةِ. ولذلك، فإن السياسة دائماً تقود الكفاح من أجل الوجود.

"من الضروري إبقاء هذا واضحاً، لأنه بسبب هذا، المفهومان – الحرب والسلام – سرعان ما ينهاران إلى العدم. لأن الجائزة التي يتم عليها الصراع السياسي هي دائماً الحياة نفسها، ونتيجة الفشلِ أَو النجاحِ بطريقة ما يتشابهان، بغض النظر عن الوسائلِ التي تحاول السياسة بها خوض صراع البقاء لحفظ حياة شعب. أي سياسة سلامٍ تَفْشلُ تقود مباشرة إلى دمار شعب، ما يعني، انقراض مادته من اللحم والدم عندما تجهض سياسة الحرب، في الحالةِ الوحيدة كما في غيرها، فإن سَلْب شروطِ الحياة يسبب انقِراض شعب. لذا فإن الأمم التي اختفت من ساحات الحرب؛ المعارك المفقودة بالأحرى حَرمتْهم وسائلِ لحفظِ الحياةِ، بتعبير أفضل، أدى غيابهم (عن ساحات الحرب) إلى مثل هذا الحرمان، أَو لم تكن قادرة على مَنْعه".

"سَنَة واحدة مِنْ تحديدِ النسل في أوروبا تَقْتلُ من الناسَ أكثرَ مِنْ كُلّ أولئك الذين سَقطوا في الحروب، منذ الثورةِ الفرنسيةِ إلى يومِنا، في كُلّ حروبِ أوروبا وضمن ذلك الحرب العالميةِ. لكن

هذه نتيجة السياسة الاقتصادية السلمية التي بسببها أوروبا مزدحمة بدون وجود مجال لتطوير صحّي بشكل أكبر لعدد مِنْ الأممِ.

عُموماً، يجب تذكر ما يلي: "ما إن ينسى قوم أن مهمة السياسةِ أَن تستبقي حياتَها بكُلّ الوسائل وطبقاً لكُل الإمكانيات، وبدلاً مِن ذلك تهدف لإخضاع السياسةِ إلى نمط محدد من الفعل، تحطم المعنى الداخليَ لفَن قيَادَة الأمة في كفاحها الفاجع لأجل الحرية والخبز".

إنه نموذج للانحطاط والدموية التي وصل إليها الفكر الألماني في على يد النازي.